

مجلة الهند

"ليست كتب العلامة في التاريخ مجرد قصص المغازي والفتوح بل هي تقدّم صورة جميلة لمحامد الإسلام العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية فجملةٌ نشأت من قلم العلامة في مبحثٍ تفوق صفحاتٍ فيه وتثبت فصلاً عليه"¹.

وفي هذه المقالة الوجيزة سنتحدث عن أفكار وآراء العلامة شبلي عن القرآن الكريم ومباحثه التي صدرت من قلمه لحبّه الشاغل بالقرآن ونفسه التوّاقة إليه، وهي ستثبت علة من علل ميزات العلامة النعماني وقد تناولها العلامة بالبحث الحافل المتحلّي بالدلائل والبراهين. ويمكن لباحث أن يقدر، ولو قليلاً، إمعانه في القرآن وتميّزه بالبحث والتحقيق فيه من الصفحات البدائية للمجلد الأول لمجموعة مقالاته. ولو أنه لم يخلف كتاباً مستقلاً بالموضوع إلا أنما كتبه في "سيرة النبي" عن قضايا تتعلق بالقرآن وعلومه ويبدو من دراستها أن العلامة كان له إلمام تامّ بالقرآن وعلومه وعلى هذا فقد جعل القرآن أول وأهمّ مصدر لسيرة النبي الكريم وقدم صورة مضيئة لجوانب سيرة النبي العربي وخلقه العظيم في ضوء هذا المصدر الصافي. وهو كان يودّ أن يعمّم هذه النعمة الربانية في الناس ولذا فقد جعل يدرّس القرآن فيما بين الطلبة حين قيامه بعلي كره لكي يصطبغوا بالصبغة القرآنية ويتعرفوا على القرآن وعلومه، وقد جعل هذه الدروس ممتعة إلى حدّ مالت إليها قلوب الطلبة كما يقول السيد سليمان الندوي:

"ثم جعل العلامة يعلم الطلبة القرآن وجعله ممتعاً إلى حدّ شغفوا بدراسته ممعنين فيه وشرع ينمو فيهم ذوق القرآن والتدبر فيه"².

ولما احتل منصب نظارة المعارف في ندوة العلماء أدخل "إعجاز القرآن" في مقرّرات الندوة الدراسية لأجل رغبته هذه في القرآن وعلومه كما قرّر فيه تدريس أجزاء القرآن فيقول السيد سليمان الندوي:

¹ مجلة كلية شبلي الوطنية، ص 83 (أفكار سهيل)

² حیات شبلي، ص 149

مجلة الهند

"ولتدريس القرآن بأسلوب علمي أفرغ من وقته في 1906م وجعل يدرّسه. وكان يحضر دروسه طلبة المدرسة وبعض أساتذتها، وكان يجري فيها النقاش عن كل قضية ومسئلة"¹. وفي أبريل في نفس السنة كتب إلى السيد سليمان من فارانسي: "سأتيكم وأفسّر لكم القرآن"².

وفي 2/ أغسطس سنة 1906م يكتب إليه في رسالة: "نعم، يدرّس القرآن، ولكن بالبحث والتحقيق"³. وبالجمله فلقد كان للعلامة شبلي ذوق خاص بالقرآن وعلومه ويشهد بها بحوثه القيّمة في الدراسات القرآنية وتحقيقاته وتفسيراته الرائعة. ومن الأسف الشديد أن الكاتيين عن شبلي ومآثره لم يعتنوا بكشف القناع عن هذا الجانب العلمي من شخصيته ففي هذه العجالة نتناول جانبه العلمي هذا ولو بصورة موجزة.

جمع وتدوين القرآن الكريم: وقبل كل شيء نقدّم للقراء أفكار العلامة شبلي ونظرياته العالية التي تتعلق بجمع وتدوين القرآن وبشرح وتوضيح كلمتي "صحيفة" و"سفرة". وكما ثبت بالأحاديث أن عملية جمع وتدوين القرآن قد بدأت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فكان الناس يكتبون القرآن على الأوراق من الجلد والرق فيجمعونها لديه⁴. وهكذا فقد دوّن معظم أجزاء القرآن، وبما أن الوحي واصل حتى وفاته وبما أن مرافقتها كانت صعبةً في كل ثانية فكتبت بعض الآيات على رقّ أو عظم ولكنها لم تنضم إلى تلك المجموعة فيقول العلامة شبلي أن القرآن الكريم قد جمع ودوّن في عهد النبي من حيث أن لا يبقى أي جزء من القرآن غير مكتوب⁵.

¹ المصدر نفسه، ص 433

² مكاتيب شبلي، 67/2

³ المصدر نفسه، ص 72

⁴ الإتقان في علوم القرآن، 59/1

⁵ مقالات شبلي، 8/1

مجلة الهند

وقد كانت حال القرآن كما ذكرنا حتى السنة الأولى لخلافة أبي بكر الصديق ولما استشهد أغلبية الحفاظ في حرب يمامة لفت عمر أنظار أبي بكر إليه ففوض هذه الفريضة المهمة إلى زيد بن ثابت أحد كتّاب الوحي فجعل زيد يجمع القرآن من حيث وجد.

ويرى عامة الناس أن عثمان هو جامع القرآن وهو الذي قام بجمع وتدوين القرآن فيقول العلامة شبلي مشيرًا إلى هذا الاختلاف في الآراء: لم يقد عثمان بن عفان بجمع وتدوين القرآن. إنما قام به هو إعداد بعض نسخ القرآن الذي جمعه ودوّنه أبو بكر إلى مختلف الأمصار لكي يتلى القرآن طبق نسخة أبي بكر.

ولقد ردّ العلامة شبلي هذه التهمة الموجّهة إلى عثمان بأنه أمر بإحراق مختلف أجزاء القرآن وقدم ما أدلى به الحافظ بن حجر من رأي مبرهن أن كلمة "يخرق" تعدل كلمة "يحرق" في أغلب الروايات ومعنى تلك أن تلف ما بقي من أجزاء القرآن فلا تستخدم منذ الآن¹.

وقد أثبت العلامة شبلي في ضوء الدلائل التاريخية ما بذله عثمان الغني من جهود حقيقية بالنسبة لجمع وتدوين القرآن كما أزال هذه التهمة التي وجّهت إليه لأجل فقد البحث والتحقيق. فالحمد لله على أن العامة قد اطمأنت قلوبهم إلى ما قدمه العلامة من رأي مبرهن في هذه القضية.

المراد من "صحيفة" و"سفرة": قد استخدم القرآن كثيرًا كلمات "صحيفة" و"كتاب" و"لوح" فما هو المراد من تلك فهل أريد بها هذا القرآن أم اللوح المحفوظ أم كتاب الأعمال البشرية؟

قام العلامة بتحقيق هذه الكلمات في ضوء أصل مهمّ "تأويل القرآن بالقرآن" فقد ناقش الآية "وكتاب مسطور في رق منشور" فأثبت أن المراد من الصحيفة هذا القرآن ولا غير فهو يقول:

¹ المصدر نفسه، ص 22

مجلة الهند

"الرق كان يستخدم للكتابة في قديم الزمان والمنشور هو المنتشر فالبيدي أن لا يراد به كتاب وضع ملفوفًا فالقرآن كتاب يجب استخدامه ويتلوه مسلمو كافة العالم ثم يتعجب العلامة من تحقيق المفسرين بأنهم قد أرادوا به اللوح المحفوظ أو كتاب الأعمال مع أنه تبعه شرحه. ويفتد رأي المفسرين ذاك ما استدلّ به العلامة من العقل: هل استخدم الرق لكتابة الأعمال؟ فاتضح جليًا من هذه الكلمة أن القرآن قد كتب أولًا في الجلود وما أشبهها من الكواغد في عصر صدر الإسلام ولم يرد بهذه الكلمات إلا هذا القرآن وهو يمضي قائلًا:

"ونحمد الله على أن بعض المفسرين قد أرادوا بها ما صحّ وصاب¹ فقد جاء في تفسير أبي السعود "المراد به القرآن"² وذهب مذهبه الإمام الرازي³.

جاء في سورة عبس: في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة" يفسر العلامة شبلي فيقول: لو أردنا بـ"سفرة" سفراء فسيكون الملائكة سفراء الوحي بمن فيهم جبريل ولكن اللوح المحفوظ ليس بأيديهم وهذا معترف به أنهم بلغوا الوحي الأنبياء عن ظهر قلب فلم يكونوا يحملون أوراق اللوح المحفوظ إليهم فيثبت من هذا أن القرآن في الصحف وتلك الصحف بأيدي صحابة كرام بررة ولتأييد قوله يستدل بما جاء في التفسير الكبير من: "والسفراء الكرام البررة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: هم القراء"⁴.

ولقد اعتبر العلامة رأي قدامى المفسرين أن المراد بالصحيفة اللوح المحفوظ والسفرة الملائكة⁵ من حسن ظنهم بالملائكة وهو ليس بصحيح وذلك لأن سياق الآيات وسباقها

¹ المصدر نفسه، ص 5

² تفسير أبي السعود، 693/7

³ التفسير الكبير، 58/6

⁴ المصدر نفسه، ص 480

⁵ ونفس الرأي أدلى به الشيخ أمين أحسن الإصلاحي حامل لواء فكرة الإمام الفراهي وأكبر المفسرين في القرن العشرين، راجع: تفسير تدبر قرآن، 203-202/9

مجلة الهند

يدلان على المراد من الصحيفة القرآن الكريم والسفرة الصحابة الكرام ولنقرأ ما كتبه العلامة بهذا الشأن:

"يرى من حسن ظنه بالملائكة أن المراد من الصحيفة اللوح المحفوظ وأن السفرة هم الملائكة أي القرآن في اللوح المحفوظ الذي بأيدي الملائكة ولكن هذا ليس بصحيح فقد ثبت لدى كافة المفسرين أن السفير هو الكاتب أو السفير وهذا بديهي أن اللوح المحفوظ لم يكتبه الملائكة بل كل ما نقش عليه هو بيدي الله جل جلاله فلن يراد منهما أن اللوح المحفوظ بأيدي الملائكة الذين كتبوا فيه ويمكن أن يحمل اللوح المحفوظ الملائكة وهم يعرفون الكتابة ولكن لم أجد في رواية ذكر ملك سماوي يقدر على الكتابة".¹

يرى العلامة شبلي أنه لما عزم الله على تدوين القرآن وحفظه فقد وقر أسبابًا ظاهرية لصيانتة فهو يكتب مستدلًا بقوله تعالى "إن علينا جمعه وقرآنه" (سورة القيامة: 17) الشيء الذي ذكر فيه صيانتة ليس باللوحة المحفوظ بل هو القرآن الذي كان يكتبه الصحابة بأمر من النبي الكريم والذي كتب على صفائح من الرق والجلد والعظم ولم يكن من كاتبيه سوى الصحابة الكرام.

وفكرة العلامة شبلي تصدق الظن لأن اللوح المحفوظ يتعلق بالسماء كما ثبت أن صيانتة مأكولة للملائكة الكرام فلا مساع لضياعه أو لتدخل روح نجسة فيه إلا هذه النسخة التي بأيدي الناس فقد أمكن ضياعها أو تحريفها أو خلط الحق بالباطل فيها كما حدث مع الصحف السماوية الأخرى مثل التوراة والإنجيل فقد تحمّل الله بنفسه صيانتة وبدأها بأن استكتبه بأيدي صحابة كرام بررة على أوراق من الرق والعظم والجلد وفوق تلك أنه حفظه في قلوب الملايين من المسلمين مما لن يمكن التحريف فيه. بداية فن التفسير: والعلم الإسلامي الذي لفت إليه أنظار المسلمين خاصة والذي كتب فيه الآلاف من الكتب والرسائل هو فن التفسير. ولو أن محبيه والتواقين إليه قد كثر

¹ مقالات شبلي، 6/1

مجلة الهند

عددهم في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي خلال القرون الأولى للهجرة ولكنما قام بتأليفه القدامى حتى القرن الرابع الهجري قد ذهب به الدهر والفن الذي كان أغنى الفنون أصبح مفتقرًا أكثر بكثير. يقول العلامة شبلي النعماني:

"لقد ألفت آلاف من الكتب في هذا الفن ولكن اليوم هذا الفن أكثر افتقارًا من غيره من الفنون الإسلامية فقد ضاعت مؤلفات القدامى حتى لا نجد أي تفسير من القرن الرابع الهجري وأما ما ألفت فيما بعد فلو أنه كثير جدًا إلا أنه تكرر مكرّر¹.

يقول العلامة شبلي إن الصحابة لم يحتاجوا إلى معلّم في فهم القرآن إلا في بعض المعضلات التي كان الصحابة يسألون من كان أعلمهم به ولكن حينما اتسع نطاق الدولة الإسلامية وتسّلت أفكار وآراء وتوسّعت طرق وأساليب التفكير فاحتاجوا إلى تدبر الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام فأول من التفت إلى هذا الجانب من بين الصحابة كان عليًا ثم حذا حذوه عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي ابن كعب وأبو موسى الأشعري وكان أبرزهم عبد الله بن عباس الذي استفاد منه العدد الغفير من طلاب القرآن الكريم. وأما عن جهة الفن فقد بدأ به سعيد بن جبير فكتب تفسيرًا بأمر من الخليفة عبد المالك وقدمه إليه².

ثم يقول العلامة: ثم جاء الأئمة المجتهدون الذين ألّفوا التفاسير ومنهم سفيان بن عيينة وأبو بكر بن أبي شيبة ومن ثم عمّ التفسير وشرح معضلات القرآن.

أقسام تفاسير القدامى حسب المباحث: لما عمّ التفسير ظهر من بين القدامى من أفرد مؤلفاتهم بموضوعات خاصة للقرآن وبرز في هذا المجال كبار العلماء والمفسرين فكتب أحدهم في الجانب الفقهي للقرآن بينما الآخر كتب عن أسباب النزول كما كتب الثالث عن الكلمات الأعجمية الواردة فيه وهكذا كتب الرابع عن أمثال القرآن وألّف الخامس عن تأويل المتشابهات حتى بلغ عدد مثل هذه المباحث 80 وفي كل موضوع كتاب أو

¹ المصدر نفسه، 4/42

² ميزان الاعتدال، 2/197 ومقالات شبلي، 1/27

مجلة الهند

كتابان أو ثلاثة. والعلامة شبلي يؤيد هذا النوع من التفسير ويدلّ على ما يكمن فيه من الفوائد العلمية والدينية¹ ثم يقول: ولو أن عدد هذه الكتب كبير إلا أنها مقسومة في ست زمراتية:

1. التفسير الفقهي: في تفاسير هذا القسم يتحدث عن الآيات التي تستنبط منها القضايا الفقهية مثل أحكام القرآن للإمام أبي بكر الرازي وأحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق.
 2. التفسير الأدبي: في تفاسير هذا القسم ينطق عن حقيقة القرآن ومجازه، وتشبيهاته واستعاراته، ومكرراته، ووجوه ترتيبه، وصنائه وبدائعه، وفصاحته وبلاغته فيثبت أن القرآن معجز من هذه الجهات.
 3. التفسير التاريخي: يذكر في تفاسير هذا النوع قصص الأنبياء السالفين وأخبارهم.
 4. التفسير النحوي: في تفاسير هذا القسم يتحدث عن القضايا النحوية للقرآن.
 5. التفسير اللغوي: فيها تشرح مفردات القرآن ومعضلاته اللغوية.
 6. التفسير الكلامي: يبحث في تفاسير هذا القسم عن الآيات التي تحتوي على العقائد².
- أعرب العلامة عن قناعاته بالتفاسير الفقهية القديمة وقال: لا يتسع فيها المجال للزيادة لأن كبار الأئمة ألفوا فيها ولم يألوا أي جهد للبحث والتحقيق وكذا يقول عن القضايا النحوية ومفردات القرآن: لن يمكن أن نزيد فيها³ ثم استعرض ما بقي من الأقسام التفسيرية بإجمال مقنع مما يثبت أن العلامة كان له إلمام تام بالموضوع. وقد أعرب عن أسفه في كتب القصص والأخبار فقال إن القرآن يجمع الوقائع التي هي صحيحة أصلاً والتي كان بإمكانها التأثير في طبائع البشر ولكن المفسرين قد أضافوا خلال تفسير آيات

¹ مقالات شبلي، 27/1

² المصدر نفسه، ص 28

³ المصدر نفسه، ص 29

مجلة الهند

القرآن أشياء لا أساس لها من الأصل فأصبحت تفاسيرهم مجموعة الأساطير وقد مارسوا نفس المعاملة مع بئربابل وجبل قاف وذي القرنين¹.

ويمكن لنا أن نقول في ضوء دلائل العلامة شبلي التاريخية والتحقيقية والنقدية إنه يجب علينا أن ندرس تفاسير القرآن بإمعان ونقد فدراستها عميماً تجرنا إلى عبادة الخوارق وعجلة العقيدة وبطلان الفكرة وكما قال العلامة:

"وما نجده في المسلمين من عبادة الخوارق وعجلة العقيدة وبطلان الفكرة جاء بها هذه الروايات الباطلة"².

من وجوه إعجاز القرآن: أجمعت كافة الفرق الإسلامية على أن القرآن لن يؤتى مثله ونسمع دوي هذه الدعوى القرآنية منذ أربعة عشر قرناً حيث قال تعالى: فأتوا بسورة من مثله "وسنسمعها حتى يوم القيامة. ولكن هناك سؤال: ما هو الوجه لإعجاز القرآن هذا؟ وأي صفة منها تجعله معجزاً؟ وما هي الخصائص التي يعجز عن تقديم مثلها أي كتاب في هذا العالم. ففي الرد على هذا السؤال اختلفت هذه الفرق وذهبت كل منها مذهباً خاصاً بها فقالت إحداها إنه معجز لتنبؤاته مما هي لن يدركها البشر وقالت الثانية إن تقديم نسخة تعادلها سهل للإنسان إلا أن الله قد أمسك بأيدي البشر عن إتيان مثله وقالت الثالثة إن من إعجازه أنه يكشف القناع عما تكن صدور البشر وأما الأشاعرة فيرون أن بلاغة القرآن هي إعجازه فالقرآن معجز لفصاحته وبلاغته.

وبدون البحث عن هذه الآراء كلها تناول العلامة شبلي رأي الأشاعرة ذلك بنقد شديد وحيرة شديدة فهو يقول إن أذهان الناس لم تمل إلى ما يريد القرآن بيانه عن القضية التي لم يزالوا يناقشون حولها فهو يقول إن القرآن سيجيب على دعواه بما أنها من عنده فقد ذكر الله تعالى صفات القرآن وخصائصه حيث تحدّى العرب لإتيان مثله وهو يقول داعياً الناس لتدبر هذه الآيات:

¹ المصدر نفسه، ص 30

² المصدر نفسه، ص 22

مجلة الهند

فتفكروا أنه تعالى ذكر من صفات القرآن ومميزاته أنه ناصح وهادٍ وبشير ونذير وحكيم وبين ولكن لم يذكر أنه فصيح بليغ فترك ما هو أصبح وجهًا من وجوه إعجازه فهل كتاب آخر يضاهي بالقرآن بالنسبة لهدايته وحكمته؟ وإن لم يكن كذلك فلم لا تكون هذه الصفات من معجزاته ولم نعتبر معجزًا ما لم يشر إليه القرآن ذاته¹.

فكأن الفصاحة والبلاغة أو أدبية كتابٍ ما لن تكون صفة لإعجاز أحد دعها أن تكون معجزة لله جل جلاله ولكنه مع ذلك لا يريد أن يقول إن هناك كتابًا يضاهي ببلاغة القرآن وفصاحته.

فتد العلامة هذه الفكرة كما يلي:

"هذا لا يعني أن كتابًا يداني القرآن في فصاحته وبلاغته والحق أن القرآن فاقد النظير في فصاحته وبلاغته وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة"².

ولا يخلو من إمتاع لو ذكرنا هنا ما أشار إليه العلامة شبلي وما هو ملخص المبحث كله وما يوضح موقف العلامة توضيحًا مزيدًا فقسم العلامة المعجزة إلى قسمين:

أولاهما تتعلق بمنصب النبوة مباشرة والأخرى دليل على النبوة بدون مباشرة يوضحهما العلامة بالأمثلة فيقول إنه حينما يطلب الناس دليلًا على من يدعي النبوة فهو يجعل العصا حية ويخرج القمر من إبطه مدعيًا أنه لا يقدر عليهما أحد غير الله تعالى فما أفعله من الله فإني رسول منه فالمعجزة هنا متعلقة بالنبوة مباشرة وأما الآخر فهو يقدم لتعضيد دعواه أنه يقوم بما لن يقوم به أحد من الهداية والتركية فإن صحّت هذه الدعوى فهي ميزة للنبوة كما هي معجزة عليها ثم يقول إنه لو اعتبرنا القرآن معجزة عن جهة بلاغته وفصاحته فحسب فهي ليست من خواص النبوة فإن قوة البيان وجماله

¹ المصدر نفسه، ص 35

² المصدر نفسه، ص 36

مجلة الهند

ليس من خواص النبوة ولكننا لو اعتبرنا كتاب الله معجزة عن جهة حكمته وموعظته فستكون هذه خاصة للنبوة كما تكون معجزة.

وبالجملة فنبوءات القرآن وأمثاله وقصصه وفصالحته وبلاغته وقوة بيانه ليست معجزة حقيقية للقرآن وهي كذلك لم تذكر في القرآن ذاته بل كونه هاديًا للناس كافة معجزة له مما لن يمكن تقديم مثال له إلى يوم القيامة.

رأي العلامة شبلي في نظم القرآن: القرآن كتاب سماوي منظم في مناسبته ونظمه فكل آياته مربوطة بما سبقها وما لحقها مثل عقد سلكت فيه اللآلي وفي مجموعة كل منها ما يدل على موضوع السورة وبناء النظم على هذا. أدلى بهذا الرأي العلماء قديمًا إلا أن الإمام الفراهي قد قدّم نظمًا ذا ترتيب محكم واعتبر الغفلة عنه سببًا رئيسيًا للاختلاف والتناقض في معنى الآية أو الآيات فهو يرى أن مخ الاختلاف في التأويل يعود إلى عدم رعاية العلماء بالنظم¹.

ولكن فكرة العلامة شبلي تختلف عن فكرة الإمام الفراهي فهو يرى أن البحث عن نظم القرآن شيء لا عائد تحته بما أنه نزل منجمًا وفي مناسبات شتى إلا أنا نراعي سياق الآية وسبقها في تحديد المعنى ويدل عليه كتابه "سيرة النبي" ومقالاته التي تناول فيها العلامة هذا الموضوع بالبحث.

ويتجلى لنا فكرة العلامة عن نظم القرآن مما يأتي من المقتبس فهو يؤيد أغلبية القدماء في هذا الشأن:

"يرى أغلبية العلماء أن الآيات القرآنية نزلت بمناسبات شتى ولأهداف مختلفة فما أمكن رعاية أي ترتيب فيها وذلك لأن القرآن نزل منجمًا ولكل آية أو مجموعة من الآيات سبب يختلف عن الآخر وراء نزولها فلحاظ الترتيب فيها شيء لا يعود بفائدة"².

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 29

² مقالات شبلي، 15/2

مجلة الهند

يتجلى مما سلف أن نظم الآيات أو رعاية مناسبتها لم تثبت من كتابات القدماء فلا ترتيب خاصاً في آيات القرآن وسوره فقد جاءت أحكام فقهية في آية تبعها أحكام حربية وإرشادات خلقية ثم تأتي قصة ويلتفت الكلام إلى كفار قريش أو موضوع آخر وهكذا دواليك فالقرآن لا يراعي ما هو المطرد لدى الكتّاب والباحثين الجدد¹.

فوجهة نظر العلامة شبلي جلية بيّنة بالنسبة لنظم القرآن فيبدو مما سلف أنه لم يكن يؤيد وجود موضوع مركزي لسورة أو مجموعة من السور إلا أنه يرى مفيداً لو تناولها أحد بالتدبر والتأمل فما بدأ به الإمام الفراهي من كتابة تفسيره الذي راعى فيه نظم القرآن وتحديد موضوع مركزي لكل سورة والذي قد رأى بعض العلامة بعض أجزاءه فهو يقول مستعرضاً له:

"لا نؤيد ما يودّه (الإمام الفراهي) حين استعراض كتابه هذا. هذا مفيد للجماعة الإسلامية في هذا العصر خاصة إفادة الماء الزلال لرجل عطشان كاد أن يموت"².

رأي العلامة شبلي عن التأويل: في القرآن آيات يتضح معناها تماماً وهي تسمى "أمّ الكتاب" بينما هناك آيات لا يعلم معناها الحقيقي سوى الله ومن يتعرف على الأسرار والآن يثور سؤال: هل يمكن تأويل هذه الآيات الغير الواضحة أم لا؟ وإن أراد أحد تأويلها فكيف يقوم به؟ وما هو التأويل؟ هل التأويل جائز أم له محل خاص وما هي قواعده؟ وكذا أسئلة أخرى عن التأويل أثارها العلامة شبلي فردّ عليها ردّاً مفحماً في كتابه "الكلام".

فأولاً ناقش العلامة معنى التأويل لغة ومصطلحاً وهذا البحث منه يوضح حقيقة التأويل جلياً فيقول العلامة دالاً على معنى التأويل: التأويل يعني المرجع والمسير وأما في المصطلح

¹ المصدر نفسه، ص 42

² المصدر نفسه، ص 14

مجلة الهند

فهو يعني التعبير والتفسير وقد استخدمه القرآن في هذا المعنى إلا أن العلماء والمفسرين قد أرادوا به اختيار المعنى غير المعنى الظاهر للكلمة¹.

ويقول العلامة إن كافة الفرق الإسلامية أجازوا التأويل سوى الحشوية إلا أنهم اختلفوا في المناسبات فأحصوا الآيات التي يمكن تأويلها والآيات التي لا يمكن تأويلها. وقد أشار العلامة إلى وضع أصول التأويل وتحديدها فقال: قد تناول الإمام الغزالي هذا المبحث بالتفصيل في كتابه "إحياء العلوم" وكتابه "فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" وقسم القضايا المشكوك نقاشها في خمس مما ييسر أمر التأويل ويقوم بحل قضية التأويل حلاً مقنعاً ولقد كتب الإمام الغزالي رسالة مستقلة بجواز هذه الشرائط ومن ثم ترتيب هذه الأقسام وهذه الرسالة قول فصل في هذا المبحث فهو يقول: هناك أقسام خمسة تالية لوجود الأشياء:

1. الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي مثل وجود السماء والأرض
2. الوجود الحسي: ما يختص بالحس فحسب مثل وقائع المنام
3. الوجود الخيالي: ما يتعلق بالوجود الديني
4. الوجود العقلي: ما يثبت وجوده العقل مثل أخذ شيء باليد والمراد به الحكم به والقدرة عليه
5. الوجود الشبهي: ما لا يوجد ولكن أشباهه توجد².

ويقول العلامة شبلي إن الأقسام التي قررها الإمام الغزالي وما قام ببيان حقيقتها أمر فصل في الموضوع وبناء على ذلك فقد اعترف كافة المفسرين بإمكان التأويل إلا أن العلامة شبلي قد اعتبر قضية بقاء مشكوكاً فيها والتي سببت المآت من الأخطاء بعد الإمام الغزالي فقد قرّر الإمام الغزالي من أصول التأويل أنه لما استدلل قطعاً على أن المعنى الظاهر لا يراد فليرجع إلى المعنى الآخر. يبدو هذا الأصل صحيحاً بذاته ولكن كلمة

¹ الكلام، 172/2

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

مجلة الهند

"الدليل القطعي" تتطلب شرحًا مزيدًا فالمراد منها عند الإمام الغزالي والإمام الرازي هو أنه إذا أشكل على المفسّر ما ينهى إرادة المعنى الظاهر فيقول العلامة إن "المشكل" يراد به المستبعد كذلك ولكن الإمام الغزالي يشترط المشكل العقلي فتقرّر أصل التأويل أنه إذا أشكل عقلاً على إرادة المعنى الظاهر فيرجع إلى التأويل¹.

ثم تناول العلامة تحقيقات الإمام الغزالي بالنقد وأثبت أن معنى "المشكل" قد مهّد السبيل للمتوهمين.

فيرى العلامة أن القرآن ولو هو كلام رباني ولكنه نزل بلسان العرب فيشمله كافة خصائص اللسان العربي ففيه المجازات والاستعارات والتشبيهات وكذلك أساليب العربية فيرى العلامة أنه بإمكان أحد أن يعني باستعارات ومجازات القرآن ما يفهم منها كما يعني ما يظهر منها فلن يضلّ أحدٌ أحدًا أنه لم يرد بها ما يفهم فمثلاً "حمالة الحطب" تعني من تجمع الخشب فتحملها بينما أراد بها اللغويون من هي تنمّ فهل يخرج أحدٌ من الإسلام لو أراد بها ما يظهر فيرى العلامة أن سياق الحديث وطريقته يدلان على أنه لم يرد بها ما تعنيه حقًا². وكذا لا يدلّ السياق في بعض المواضع ولكن يستبعد ما يظهر منها فيرد بها المجاز في مثل هذه المواضع³.

التأويل ليس بالتأويل الحقيقي: يقول العلامة شبلي إن الأشياء التي نطلق عليها كلمة التأويل هي ليس بالتأويل حقًا فالتأويل يعني ترك ما يظهر واختيار ما يفهم من المعنى ولكن لم يأوّل المعنى الظاهر فاستعمال الكلمة والتعابير كلها تدخل في المعنى الظاهر والحال أن الناس لا يسمّونها تأويلًا والواقع أن المعجم يعطي معنى لكلمة ثم يراد به المعاني الأخرى لمناسبتها وعلاقتها ثم يوضّح معنى التأويل بمثال أن اللفظ يعني الطرد

¹ المصدر نفسه، ص 189-191

² المصدر نفسه، ص 194-195

³ المصدر نفسه، ص 196

مجلة الهند

واللفظ يسمى اللفظ لأنه ملفوظ (مطروود) من قبل اللسان وهذا معنى ثانوي ولكن مثل هذه المعاني مضبوطة في المعاجم واعتبرت معاني أصلية وفي اللغة العربية توجد عشرات بل مآت من المعاني لكلمة ولا يكون معناها الأصلي سوى واحد ولكنها كلها اعتبرت معاني لها حقيقة فالثيء الذي يسمى تأويلاً فهو ليس بتأويل فإن المعنى الذي استخدمت له هو أيضاً معناها الظاهر¹.

ثم تناول العلامة أسباب ووجوه التأويل بالبحث وأوضح هدفه بأن الأمور التي تحتاج إلى التوضيح لها صور عديدة فمنها ما لا يقبلها الأذهان العامة فسكتت الشريعة عن ذكرها فاختارت أسلوب التمثيل أو التشبيه لكي تخلق فيها خيالاً موجزاً ومنها ما هي ليست بمشكلة إلا أن بيان حقيقتها ستضرّ بعامة الناس ومنها ما هي واضحة للغاية ولكن ذكرت بأسلوب التشبيه والاستعارة لأن هذا الأسلوب مؤثروراسخ للغاية².

وبالجملة فإذا جاء ذكر شيء في الشريعة (القرآن) فلا يراد وجوده الخارجي أي تأويله بل يمكن أن يراد به وجوده الخيالي أو الحسي أو العقلي أو الشبهي³ ففي هذه الحالة إذا أراد أحد معنى آية ليس بتأويلها بل هو توضيحها وشرحها وتفسيرها ونريد بهذا معنى تأويل القرآن وعلى هذا فقد أجاز العلماء والمفسرون شرح وبيان ما أشكل أو أہم من آيات القرآن وقاموا بوضع وتحديد أصول التأويل والتي لا يمكن بدونها تأويل آيات القرآن.

توضيح وجهة نظر القرآن عن القدر: هل الإنسان مسئول عما سعى أو كل ما يحدث يقع كما شاء الله؟ ثار هذا السؤال في عهد بني أمية فلما عمّ الظلم في عصرهم ولما أراد العرب المظلومون أن يلوموهم على ما فعلوه فبدأ الحكام يقولون إنما يحدث يحدث بأمر من الله ومشيتته فما نمارسه من الظلم معكم ليس إلا مما أمره الله إيانا فلا يجمل بأحد أن يشكوه إلينا.

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

² مقالات شبلي، 55/1

³ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

مجلة الهند

وقد برز هذا النقاش لأن القرآن يحتوي على كلا النوعين من الآيات وكلاهما يتساوى فيثبت من بعض الآيات أن الإنسان ليس له أي خيار (سورة آل عمران: 128) بينما يثبت من بعض الآيات أن الله لا يهدي القوم الكافرين والفساق (سورة البقرة: 264) فقد أجبرهم الله على أن لا يؤمنوا (سورة البقرة: 7) إن ضلالهم بمشيئة الله (سورة الأنعام: 35) وقد جاء في بعض الآيات أن الله قوّض الشياطين والفجار لتضليل الناس (سورة مريم: 83) وكذا تشير بعض الآيات إلى أن الله لا يضلّل أحدًا بل هو من أعمال الشياطين (سورة النساء: 27) الإنسان مسئول عما يسعى (سورة يونس: 108).

وقد كتب العلامة شبلي بحثًا حافلًا بالموضوع مقنعًا بعنوان "قضاء وقدر اور قرآن مجيد" (نظرية القرآن الكريم عن القضاء والقدر) في المجلد الأول من مجموعة مقالاته، والذي يبرهن على سعة اطلاع العلامة شبلي على القرآن وعلومه فقد فاز العلامة في حلّ عقد هذه القضية المشكلة من حيث تتضح القضية تمامًا وتنجلي جيدًا فما قام به العلامة من التطبيق بين النوعين المتعارضين من الآيات يجدر بأن ندرسه مرارًا وتكرارًا وقد قال العلامة النعماني إن تدبر الآيات القرآنية يكفي هذه القضية حلًا لها ومنع عن الخوض في أسباب وعلل وجود هذه القضية فهو يقول إن السبب الرئيسي وراءه أن الله خلق أناسًا ذوي أمزجة مختلفة فمنهم من هو كسلان فاطر العزيمة فتطلب طبيعته النصر والمعونة وهذا يثبت أنه ضعيف ومفلس ومنهم من هو عالي العزيمة فيعتقد أن الإنسان حاكم الأرض كلها وهو يقدر على استئصال القوى والسلطات بفضل عزائمه، والسبب الثاني لبروز هذا النقاش هو عدم تدبر تعارض الآيات القرآنية فهو يقول: لتدبر أولاً ما هي حقيقة ما يبدو من تعارض في الآيات القرآنية¹.

وبعدما أحاط بأسباب ووجوه هذا البحث كشف القناع عما يبدو من تعارض الآيات القرآنية المختلفة وقال: كلما ذكر من مشيئة الله وإرادته في مختلف مواضع القرآن فله

¹ المصدر نفسه، ص 57

مجلة الهند

قسمان: (1) إحداهما فطرية (2) وأخرهما شرعية، فقد قدّم الآيات التي ذكر فيها أن الله يأمر الفاجر بالسوء وحاول أن المراد منه طبيعة الإنسان وأما الآيات التي أمر فيها أن الله لا يأمر أحدًا بالسوء أريد بها الحكم الشرعي¹. فمثلاً قال تعالى: وكان أمر الله مفعولاً" (سورة النساء: 41) فيقول العلامة النعماني هذا هو الحكم الفطري الذي يكون مفعولاً وإلا فلا يعمل الأغلبية بالحكم الشرعي ولا يلزم العمل عليه وكذا جاء في سورة الإسراء "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها" (سورة الإسراء: 16) فقال العلامة موضعاً إياها: أنه عندما تخرب ديار فتولد في طبائع أهاليها مادة سوء وبالتالي فهي يتم خرابها فيقول العلامة: ففي هذه الحالة لا يوجد أي تعارض بينهما².

وملخص ما كتبه العلامة شبلي أنه يلزم لخراب شيء أو دماره أن تولد فيه مادة الزوال والانحطاط التي تجرّه إلى عاقبته النهائية العقلية كما سيتضح ما أسلفناه مما يلي:

لم جعل الله الطبائع التي ترتكب السوء؟ كل ما خلقه الله في هذا الكون مسخر له تعالى ونظام الكون كله يسري كما قرّره فيرى العلامة شبلي أن طبيعة البشر يحتمل له أربعة أمور:

1. عسى أن يكون الإنسان خيراً كله
2. عسى أن يكون الإنسان شراً كله
3. أن تكون مادة الخير فيه أكثر من مادة الشر
4. أن تكون عناصر الشر زائدة.

فيقول العلامة إن القسم الثاني والرابع خلاف للحكمة والعدل فلم يخلق الله الإنسان على هذه الطبيعة فالقسم الأول والثالث كانا موافقين للحكمة والعدل فقد جعل الله الناس على هذه الفطرة وعلى هذا فيواجه الإنسان الثواب أو العذاب حسبما قام به من الخير أو الشر فكأن صدور الأعمال الصالحة أو الفاجرة حسب هذه الفطرة فالجزاء خيراً

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

² المصدر نفسه، ص 63

مجلة الهند

كان أو شرًا نتيجة فطرية لما قدّمه فيثور في أذهان العامة سؤال: لم خلق الله الطبائع التي تصدر الشر؟

فيدعو العلامة الناس إلى التدبر ويقول عن هذه القضية: إذا كان شيء يحمل بين دفتيه فوائد عديدة ومناقص فماذا تعمل فهل تتركه البتة أم تختاره على أن فيه فوائد عديدة ولو أن فيه مناقص¹ فيوضّحه العلامة بمثال أن النار نستخدمها لخدمات عديدة فهل نتركها على أنها ربما تحرق ملابسنا وبيوتنا فيريد العلامة شبلي أن يقول إن في مثل هذا التخليق البشري فوائد لا تحصى كما فيه مناقص معدودة وعلى هذا فقد جعل الله مثل هذه الفطرة له وهذا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وملخص هذا البحث القيم أن نظام الكون كله مبني على سلسلة الأسباب ولا بد من مسبب إذا كان هناك سبب وما أودعه الله في بني آدم من قوة الاختيار والإرادة فهو أيضًا سبب فالإنسان خلق عمله ولكنه بما أن الله هو القادر على خلق كافة هذه الأسباب وهو في الواقع علة العلل فتعزى كافة الأعمال إليه ولكنما يقوم به المرء يفعلها طبقًا لفطرته وما يتبعه من الثواب أو العذاب نتيجة هذه السلسلة للأسباب لا بد للمرء أن يمرّ بها.

أديان العرب قبل الإسلام وإثباتها بالقرآن الكريم: روح الإسلام هو التوحيد الخالص فلا تتصوّر الإسلام بدونه وقد كانت أديان عديدة يعمل عليها العرب في الجاهلية فقد كانت العرب يتبعون النصرانية واليهودية والمجوسية وعلى هذا فلما كان الوحي ينزل على النبي الكريم في مكة وشمله ذكر أخبار بني إسرائيل كان يقول أهل مكة إن يهوديًا أو نصرانيًا يعلمه إرشادات الدين والقرآن ذاته أشار إلى هذا فقال: ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر" (سورة النحل: 103).

وقد أثبت العلامة شبلي أديان العرب هذه بآيات القرآن وأحاديث النبي مما يدل على سعة اطلاع العلامة شبلي على القرآن والحديث وفيما يلي نوجز هذه الآراء:

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

مجلة الهند

يقول العلامة إن بعض العرب يرون أنما يوجد هو الدهر أو الفطرة فلم يكن لديهم أي تصور لله واستدل على قوله بسورة الجاثية حيث جاء: وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" (الجاثية: 24) ثم يقول إن منهم من كان يؤمن بالله والجزاء إلا أنهم كانوا ينكرون النبوة (سورة بني إسرائيل: 94) كما يرى البعض أنه إذا كان هناك نبي فليكن الملك الذي يكون خاليًا مما يتميز به الإنسان. كان الأغلبية يعبدون الأوثان إلا أنهم كانوا يعبدونها لمجرد اعتبارها وسيلة إلى الله فهو يستدل على رأيه بقوله تعالى: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"¹

فكان بنو حمير يعبدون الشمس كما كانت كنانة تسجد للقمر وكانت تعبد بنو تميم دبران وكذا كانت قيس تعبد الشعري كما كانت أسد تعبد العطار وتعبد لخم وجذام المشتري².

ولو أن الوثنية قد سيطرت بدم العرب ولم يتحرروا من هذه الفكرة إلا أن قلوبهم كانت تطوي في زاوية منها أن هناك قوة خلقت هذا الكون وما يحويه حتى كانوا يعترفون به بمناسبة شتى وكانوا يسمونه "الله" كما ورد في القرآن بصراحة: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون"³.

فيبدو جليًا مما مضى من الآية القرآنية أن العرب كان في قلوبهم فكرة رب واحد فكانوا يعترفون أن السماء والأرض، الشمس والقمر، النبات والحيوان وكل ذرة من هذا الكون تقول بلسان حالها بوجود قوة عظمى وتجعلنا نشعر بحقية وجوده ولكنهم لم يكونوا يعترفون به إلا إذا أحيط بهم بالبلاء والمصيبة فأرسل الله نبيًا يحيي فيهم هذا الشعور الخفي في قلوبهم.

وبعدما قدم العلامة من الآيات القرآنية والشواهد التاريخية يقول إن العرب كان فيهم كافة الأديان الباطلة الشهيرة من النصرانية والمجوسية والكفر والإلحاد ولكن ماذا كانت

¹ سورة الزمر: 21

² سيرة النبي، 83/1

³ سورة العنكبوت: 61

مجلة الهند

نتيجة هذه الأديان كلها فكانوا يعبدون العديد من الآلهة حسب عقيدتهم فأقلها النصرانية فجعلها ثلاثة وكذا كانوا يعتقدون أن عيسى قد خلّص الناس كلهم من عواقب البلايا الوخيمة عن طريق إعدامه فلا يستل الناس عن أشرارهم مهما كبرت فلم يعتقدوا عن التوحيد سوى أن الخالق يصارع الناس¹.

وقد حاول العلامة شبلي أن يري بذكر أديان العرب في ضوء القرآن أن الأفكار والآراء الباطلة التي كانوا يحملونها ويأخذونها بالنواجد ويعتبرونها وسيلة لنجاتهم لم تكن تؤثر في حياتهم شيئاً إيجابياً ففضى الإسلام على تلك الأفكار كلها وقدم لهم تصوراً للتوحيد الخالص انهدم به مباني الشرك والوثنية فكان شمساً منيرة طلعت في حياتهم بددت هذه الظلمات المحيطة بهم وعرف لهم بعقيدة كانت أرض العرب تنتظرها بلهفة فقام الإسلام بإصلاح ما دانوا وأعطى العالم كله عن طريقهم قانوناً شاملاً للحياة في صورة قرآن مقروء.

معنى "لامستم النساء": يقول الإمام أبو حنيفة إن الوضوء لا يزول بمس النساء ولكنه يزول عند الإمام الشافعي ويستدل على رأيه الإمام الشافعي بقوله تعالى "وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً" (سورة النساء: 43) فأراد الشافعي بالملامسة معناها اللفظي فرأى أن الوضوء يزول إذا لمس المرء المرأة.

ويقول الإمام الرازي في التفسير الكبير: اختلف المفسرون عن ملامسة المرأة فقد جاء فيه قولان: أولهما أن الملامسة تعني الجماع فإن لمسها باليد فقط لا ينقض به الوضوء وآخرهما أنه لو لمس أحد المرأة وهو متوضئاً فينقض وضوءه فإن الملامسة يعني هنا المس الحقيقي².

¹ المصدر نفسه، ص 88-89

² التفسير الكبير، 2/446

مجلة الهند

ولو أن هذه قضية تختص بالفقه ولكن العلامة شبلي قد استدللّ بالقرآن في تعيين هذا المعنى ولذا ذكرناها هنا لكي نقدر بها مدى تفكير العلامة في القرآن الكريم.

فيقول العلامة شبلي إن المراد من الملامسة هنا ليس اللمس فقط بل أريد بها الجماع. من أساليب القرآن أنه لا يصرح عن مثل هذه الأمور بل يستخدم الاستعارة والكناية¹ ولقد جاء في نفس الآية كلمة "غائط" والتي قد اعتبرها كافة المجتهدين الكناية وإلا فيجب على كل من يمرّ بأرض مستوية أن يتوضأ أي لا يكون طاهرًا ما لم يتوضأ فثبت من هذا أن العلامة النعماني يريد باللامسة الجماع.

وقد انتقد الشيخ أبو الكلام آزاد قول العلامة هذا نقدًا شديدًا فقال: لقد ارتكب العلامة خطأ فاحشًا هنا فإن كان المراد من الملامسة مس المرأة خطأ لن يرتكبه العرب فماذا نقول عن مذهب عمرو بن العاص الذي يقول بما يخالفه².

ويرى كاتب هذه المقالة أن تعليق الشيخ أبي الكلام هذا فارغ عن إمعان النظر في الموضوع لأنه ذاته قد أوضح في تفسيره "ترجمان القرآن" بين القوسين فقال أي جامعتم النساء فكأنه أيّد ما ذهب إليه العلامة شبلي.

وفوق ذلك هناك روايات تؤيد ما يرى العلامة النعماني فقد جاء في مسند الطيالسي أن عائشة رضي الله عنها قالت إني كنت مضطجعة أمام الرسول ﷺ وهو يصلي³.

وجاء في رواية أخرى: قالت عائشة رضي الله عنها إن النبي كان يمسح رجليّ كلما أراد السجود فكنت أقبض رجلي إليّ⁴.

ولنذكر هنا ما قال السيد سليمان الندوي والذي سدّ باب أي خلاف في الموضوع وذلك أن ما رواه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد كشف القناع عما ارتكبه المفسرون

¹ سيرة النعمان، 215-214/2

² حواشي أبو الكلام آزاد، ص 281

³ مسند الطيالسي، ص 205

⁴ سنن أبي داود، ص 296

مجلة الهند

والفقهاء من الخطأ الاجتهادي¹ وذلك لأنه لو زال الوضوء بمس المرأة فلقد كان على النبي أن يتوضأ بعد أن يمس عائشة مرة بعد أخرى.

تصوّر القرآن عن الاتحاد بجانب الاختلاف: من أهم أسباب انحطاط الملة الإسلامية اختلافها وافتراقها والمسلمون عامة يعانون من هذا المرض فهنا اختلاف بين الشيعة وأهل السنة، وبين البريلويين والديوبنديين، وبين المقلدين وغير المقلّدين فيرى العلامة أن قومًا لن يحيى وفي أفراد هذا النوع من الاختلاف والافتراق. والاختلاف شيء يزيل الجبل من مكانه².

ليس هذا بجديد بالنسبة للمسلمين فقد كان الاختلاف ناشئًا حين عروجهم إلا أن كل تلك الاختلافات كانت متعلقة بالعقيدة والفكرة فلم يكن يعتبر الواحد الآخر كافرًا بل أسفل منه وأما في يومنا هذا فقد تجاوز اختلافهم كل الحدود فيسعى المسلمون أن يتحدوا مع أعدائهم من غير المسلمين للنزاع المتواجد فيما بينهم.

فأولاً ناقش العلامة شبلي هذه القضية عن جهة التاريخ وأثبت أن كبار المحدثين كانوا يعتبرون القدريّة والجبريّة والمعتزلة والشيعة أهل البدع والأهواء ولكنهم مع ذلك كانوا يروون الأحاديث منهم وهو أمر مهمّ للدين فيقول العلامة شبلي: إن معظم الأئمة يرون أن رواية الحديث تجوز من كل الفرق سوى الخطابية التي تسمح بالكذب³.

فكأن الاختلاف النظري وصدق القول كان يتميز أحدهما عن الآخر عند القدماء فعسى أن يكون رجل ذو عقيدة صالحة كاذبًا وأن يكون رجل ذو عقيدة باطلة غير كاذب فيقول العلامة شبلي إن هذا من نهاية عدم تعصب المحدثين أنهم كانوا يروون الحديث من الذين بطلت عقيدتهم إذا ثبت أنهم غير كاذبين كما كانوا يعترفون بتلمذهم لهم⁴ فمثلاً

¹ سيرت عائشة، ص 296

² مقالات شبلي، 1/232

³ المصدر نفسه، ص 237

⁴ المصدر نفسه، ص 239

مجلة الهند

أن العلامة ابن السبكي يقول عن العلامة الذهبي: هذا شيخي الذهبي وهو عالم متدين بجانب تعصبهم ضد أهل السنة فلن يوثق به ولكنه يجدر بأن نتبع ما صدق من قوله¹.

يرى العلامة شبلي عن إمكانية الاتحاد لأجل الحصول على الأهداف الدينية وقد دلّ على هذه النقطة القرآن الكريم ذاته فجاء في سورة العنكبوت: ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما" (الآية: 8)

فيقول العلامة مفسراً معنى هذه الآية إن عدم طاعة الوالدين الكافرين لا تجوز إلا في الكفر والشرك ولكنه لا يزيل حقهما للأبوة والأمومة فرعايتهما في الأمور المتعلقة بالدنيا توافق وإرشادات الإسلام. يوضح هذا الأمر فيقول: هناك حدود معينة للاختلاف والاتحاد فيمكن أن يقع الاختلاف في أمور الدين وأما بدونها فلا يختلف بعضنا عن البعض.

ولقد قرّر العلامة شبلي أصليين لإمكانية الاتحاد مع الاختلاف في ضوء هذه الآية ومعاملة العلماء السلف وهما (1) أن لا نغفل عن صدق القول و(2) أن نتحد في أمر الحصول على الأهداف الدينية المشتركة. فإن نعمل نحن المؤمنين على هذين الأصلين اللذين قرّرها العلامة شبلي لضائق شقة النزاعات بيننا ولتحولت هي إلى قرابات وأواصر ودية ولظهر جو ملائم للاتحاد في المجتمع الإسلامي.

ولقد تناولنا في هذه المقالة ما تحدث عنه العلامة شبلي من المسائل والقضايا المتعلقة بمبادئ القرآن وأهم موضوعاته ولو ضمنا إليها ما تكلم عنه العلامة شبلي من غزوة بدر والإيلاء والتخيير والإفك والمعراج لبلغ عدد نكات العلامة شبلي المائة فإن مؤلفاته لاسيما "سيرة النبي" محشوة بمثل هذه الآراء القيمة عن القرآن وعلومه.

وما تناوله العلامة شبلي من الموضوعات يملأها اكتشافات ومعلومات نادرة تزيد القراء علماً وتقوى والواقع أن كتابات العلامة شبلي عن القرآن وعلومه قد أوجدت ثورة فكرية عن دراسة القرآن تأثر بها الكتاب بوعي أو بدون وعي.

¹ المصدر نفسه، ص 234

المصادر والمراجع

1. أبو السعود: تفسير أبي السعود، دار الطباعة العامرة، تفاصيل الطبع لم تذكر
2. أبو الكلام آزاد: ترجمان القرآن، ساهتيه أكاديمي، دلهي، 1966م
3. أبو الكلام آزاد: حواشي أبو الكلام آزاد، ثمر آفست برنترز، دلهي، 1988م
4. الإمام أبو بكر الرازي: التفسير الكبير، المطبعة الأميرية، مصر، 1287هـ
5. الذهبي: ميزان الاعتدال، تفاصيل الطبع لم تذكر
6. الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: تفسير تدبر قرآن، تاج كمبني، دلهي، الهند، 1997م
7. العلامة السيوطي: الإتيقان في علوم القرآن، طبعة كولكاتا، 1317هـ
8. العلامة سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2008م
9. العلامة سيد سليمان الندوي: سيرت عائشة، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 203م
10. العلامة شبلي النعماني: الكلام، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1984م
11. العلامة شبلي النعماني: سيرة النعمان، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2112م
12. العلامة شبلي النعماني: مقالات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2010م
13. العلامة شبلي النعماني: مكاتيب شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2012م
14. مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره، الهند
15. مجلة كلية شبلي الوطنية الصادرة عن كلية شبلي الوطنية، أعظم كره، الهند

العلامة شبلي النعماني وعلم الحديث الشريف

- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

نال العلامة شبلي الدراسة الابتدائية والعليا في المدارس الإسلامية في أعظم كره وغازيفور وجونفور ففي أعظم كره كان يدرّس شيخه الخاص العلامة محمد فاروق التشريياكوتي (ت 1909م) الذي كان له اليد الطولى على المعقول والمنقول من العلوم الإسلامية والحساب والأدب فلما نال عليه الفراغ من الدراسات العليا أثاره غليله الداخل للمزيد على أن ينتقي اللآلي والجواهر العلمية من الأماكن الأخرى البارزة في هذا المجال فحاول أن يستفيد من الأساتذة المهرة في الفقه والتفسير والأدب.

وكان المعتاد في ذلك الزمن أنه لما فرغ الطالب من كل نوع من العلوم كان يتقدم لنيل علم الحديث فلما أنهى العلامة دراساته توجّه نحو سهارنفور حيث كان يفيض الشيخ أحمد علي المحدث والذي أوصل سلسلته العلمية بخاتم المحدثين الشيخ الشاه عبد العزيز الدهلوي فكما انتقى العلامة النعماني أساتذة مهرة في مجالاتهم فكذلك اختار لنيل علم الحديث أستاذًا كان طائرًا صيته وعاليًا منزلته في هذا المجال.

فقد كان الشيخ السهارنفوري يعتبر إمامًا في علم الحديث في عصره. إنه تعلّم الحديث في الهند على الشيخ وجيه الدين الصديقي السهارنفوري والشيخ عبد الهي (تلميذ الشيخ الشاه عبد القادر الدهلوي) ثم ارتحل إلى مكة المكرمة في 1261هـ وتلمذ للشيخ الشاه محمد إسحاق الدهلوي المهاجر إلى مكة وتكرّم بالشهادة في هذا المجال.

فلم يكن في الهند رجل أعلم بالحديث فيما بين الأحناف من الشيخ أحمد علي فبجانب التعليم والتدريس قام الشيخ بتصحيح وتحقيق النسخ الخطية للحديث ومن ثم نشرها

مجلة الهند

فيما بين العلماء ففي 1265هـ صحّح جامع الترمذي وفي 1267هـ صحّح البخاري فقد كان العلامة شبلي يروي أن الشيخ المرحوم قد أنفق عشرين سنة كاملة في تصحيح وتحشية صحيح البخاري، وقد كان معظم العلماء الأحناف تتلمذوا له فالشهادة التي أعطاهما الشيخ الشاه إسحاق الدهلوي قد وجدها من الشيخ الشاه عبد العزيز الدهلوي وأما الشاه عبد العزيز الدهلوي فقد أعطاه هذه الشهادة الشاه ولي الله الدهلوي. وقد نقل السيد سليمان الندوي هذه الشهادة أنما ناله العلامة شبلي النعماني من شهادة الحديث قد اتصلت بهذه السلسلة المباركة من نشر علم الحديث وتعليمه¹.

وقد كان العلامة شبلي يعلم الطلاب حيث ينزل ويقوم فقد علّم الطلاب القرآن حينما كان يقيم بعلي كره وندوة العلماء² كما علّم بأعظم كره الشيخ عبد الحميد الفراهي³ والشيخ إقبال أحمد خان المعروف بسهيل⁴ اللغة العربية وآدابها إلا أننا لم نجد أنه علّم الحديث النبوي في مكان ما.

وفي يوليو 1913م استقال من منصب نظارة المعارف في ندوة العلماء ولم يرجع إليها ولو أصرّ عليها الطلبة ومن تعلّق به ولكنه جاء لكتاف في شهر ديسمبر للإقامة بها فأحبّ طلبة الصف النهائي أن يعلمهم العلامة صحيح البخاري فقبل العلامة طلبهم هذا وجعل يدرّسهم كل يوم بعد صلاة المغرب وكان يحضره العديد من الطلبة ولكن المسؤولين عن شؤون الدار لم يستحسنوه فانقطعت هذه السلسلة المباركة⁵.

وكذا لم يخلف العلامة كتابًا مستقلًا بالحديث فنقوم بذكره ولكننا نجد في غير موضع من مقالاته ومؤلفاته ما يصح عن براعته في الحديث مثل "سيرة النعمان" و"الفاروق"

¹ حيات شبلي، ص 86-87

² المصدر نفسه، ص 149-433

³ المصدر نفسه، ص 97

⁴ المصدر نفسه، ص 350

⁵ المصدر نفسه، ص 650-654

مجلة الهند

"سيرة النبي" ولكن لا نشير هنا إلا إلى الكتاب الأخير مخافة التطويل فإن الأحاديث قد أصبحت شغله ليل نهار حين كتابة هذه الموسوعة فيقول السيد سليمان الندوي:

"في 1910م حينما انقطع العلامة إلى كتابة سيرة النبي المصطفى فقد تركزت عنايته على مركز واحد منقطعاً من كل مبحث وموضوع فلم يكن لديه عناية بابن رشد ولا بالغزالي ولا الرازي ولا بو علي سيناء ولا التاريخ والفلسفة فكان شغله ليل نهار دراسة كتب الحديث والسيرة والإمعان في الإرشادات والأخلاق النبوية والبحث عن كتب السيرة النادرة فكانت كتب الحديث ومؤلفات السيرة تحيط به حيث جلس في السرير أو على الحصير فكان يقضي وقته كله في هذا العمل المبارك وكان العلامة سعيداً بهذا الشغل المبارك فكان يتخيل هذا ويتحدث عن هذا ويراسل لهذا فكان السيرة النبوية أصبحت شغله الشاغل في هذه الأيام"¹.

وقد اخترنا "سيرة النبي" لإراءة براعة العلامة شبلي في الحديث لأن الأصول التي وضعها في تأليف هذه السيرة أرجحها القرآن الكريم والذي هو فوق كافة مصادر السيرة ثم يأتي الحديث فقد صرف النظر عن روايات السيرة دون الأحاديث الصحيحة فلا يرى الاحتجاج بروايات السيرة أوهن من الاحتجاج بأحاديث البخاري ومسلم فأبرز ميزات هذه السيرة أنه جمع تفصيل معظم وقائع السيرة أخذاً من كتب الحديث.

والأصل الثالث أن الوقائع اليومية تكفيها روايات ابن سعد وابن هشام والطبري تكفي مبيّنة لها إلا أن الوقائع التي لها أهمية بمكان فقد سلطنا طريق البحث والتحقيق لها وقد أجهدنا أبداننا فأذهاننا ما استطعنا².

ثم قال:

¹ المصدر نفسه، ص 50-51

² سيرة النبي، 1/69 (المقدمة)

مجلة الهند

"الوقائع التي لها أهمية بمكان لم نحل فيها إلا إلى الأحاديث الصحيحة أو كتب التاريخ الموثوق بها وأما الوقائع العامة أو المغازي فلم نقم بما قام به المحدثون من الجهد المضني"¹. ولقد أُلّف معظم أجزاء السيرة السيد سليمان الندوي والذي أشار إلى هذه الأصول بمختلف المناسبات واعتنى بها.

وقد قام العلامة شبلي بتأليف مقدمة طويلة في فن السيرة قبل أن يخوض في أخبار ووقائع النبي المصطفى، وهي تحتوي على أهم أصول الرواية والدراية فنبداً ببعض الأشياء المذكورة فيها.

فن السيرة وفن الحديث مختلفان: كان العلامة شبلي يعتبر السيرة فناً مستقلاً به ولكن يراه عين فن الحديث فهو يرى أن فن السيرة لا يبنى على الأحاديث الصحيحة فيقول الحافظ زين الدين العراقي:

وليعلّم الطالب أن السـيـرا تجمع ما صحّ وما قد أنكر² وموضّحاً هذا الأمر يقول العلامة إن المحدثين وأرباب فن الرجال يرون أن الغزوات الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلّم تسمّى "المغازي" و"السيرة" ولذا فقد سمّي كتاب ابن إسحاق "المغازي" كما هو يسمّى "السيرة" فقد استخدم الحافظ ابن حجر في فتح الباري هذين الاسمين معاً، وكذا هذا من مصطلحات الفقه فباب "كتاب الجهاد والسير" الذي يأتي فيه يريدون فيه أحكام الغزوات والجهاد باسم "السير". والكتب التي أُلّف باسم السيرة حتى القرن الثالث الهجري يحتوي معظمها على الغزوات إلا أنه قد انضم إليها غير المغازي في القرون الأخرى مثل "المواهب اللدنية" فهو يشمل أشياء أخرى غير المغازي.

فالمغازي والسير شيء يختلف عن فن الحديث عند المحدثين حتى أن أرباب السير والمحدثين يعتبران جماعتين تختلف إحداها عن الأخرى في بعض الأحيان؛ فنرى في بعض

¹ المصدر نفسه، ص 71

² المصدر نفسه، ص 7 و8

مجلة الهند

الوقائع أن أرباب السير يذهبون مذهبًا يخالفه البخاري ومسلم وفي مثل هذه المناسبات لا يقبل بعض الناس ما يرويه البخاري لمجرد أنه يخالف كافة أرباب السير إلا أن أصحاب التحقيق يرون أن الحديث الصحيح أرجح مما اتفق عليه أرباب السير كلهم فمثلاً:

1. أن أرباب السير يجمعون على أن غزوة ذي قرد وقعت قبل صلح الحديبية ولكن يروى في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع أنها وقعت بعد صلح الحديبية وقبل غزوة خيبر بثلاثة أيام، وقد كتب العلامة القرطبي في شرح هذا الحديث أن أهل السير يجمعون على أن غزوة ذي قرد وقعت قبل صلح الحديبية فما جاء في رواية سلمة وهم من أحد الرواة. وقد ناقش الحافظ ابن حجر قول القرطبي فقال أنما ذكر في صحيح مسلم من تاريخ غزوة ذي قرد أصح مما ذكره أرباب السير.

ولقد قام المحدث الشهير الدميّاطي بتأليف كتاب في السيرة رجّح في غير موضع منه روايات أهل السير ولكنه حينما أكثر التتبع علم أن الأحاديث الصحيحة مرجحة على روايات السيرة ولذا فقد أراد أن يصرف في كتابه هذا ولكنه لم يسعه بما أنه قد انتشرت نسخه في العالم.

2. وكذا أجمع أرباب السير عن غزوة ذات الرقاع أنها وقعت قبل غزوة خيبر ولكن البخاري صرح أنها وقعت بعد خيبر فخالفه العلامة الدميّاطي وادعى أن الحديث موضوع وأن كافة أهل السير يخالفونه فنقل الحافظ ابن حجر قوله هذا وردّ عليه¹.

كتب السيرة أقلّ منزلة من كتب الحديث: والهدف وراء إراءة الفرق بين كتب السيرة وكتب الحديث ليس إلا أنه بما أن فن السيرة ليس بفن الحديث عينه فلا يعتنى بصحتها عنايته بصحاح الحديث ومثله مثل أن الفقه مأخوذ من القرآن والحديث ولكن لا نقول بأنه هو القرآن أو الحديث أو يضاهي بهما.

¹ المصدر نفسه، 6/1 و7 (المقدمة)

مجلة الهند

3. والتفاصيل الجزئية التي توجد في كتب المغازي والسير لا توافق ومستوى فن الحديث الأعلى وعلى هذا فقد أهبطوا مستوى الجرح والتعديل فانحطت منزلة السير والمغازي من منزلة فن الحديث.

4. وكما اعتنى البخاري ومسلم بأن لا يضبطوا أي حديث ضعيف في كتابهما فلم يقيم بمثلها أي جامع أو مؤلف لكتب السيرة فنجد الآن العشرين كتابًا للقدايم والمتأخرين مثل سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام وسيرة ابن سيد الناس وسيرة الدمياطي والحلي والمواهب اللدنية ولكن لم يعتن بذلك أي منها.

ولذا يقول العلامة شبلي بأن كتب السيرة بجمالها لا تضاهي بكتب الحديث إلا أنما يصدق مستوى الجرح والتعديل فهو يليق بالاحتجاج به وهو يرى أن السبب وراء انحطاط منزلة كتب السيرة أن الحاجة إلى الجرح والتعديل قد خصّصت بأحاديث الأحكام أي تناولوا بالجرح والتعديل تلك الروايات التي تثبت الشرائع وأما التي تتعلق بالسير والفضائل فلا تحتاج إلى الحيلة وشدة الجرح¹.

تسامح المحدثين في فن السيرة: ويتقدّم شيئاً فيري هذا التسامح لدى كبار المحدثين أنهم قد حشوا الأحاديث الضعيفة عن المناقب والفضائل وقد سمح كبار العلماء بضبطها في كتبهم فهو ينقل ما كتبه العلامة ابن تيمية في كتاب التوسل من أن هذا الحديث قد رواه من المحدثين من ألف الكتب في يوم أو يومين مثل ابن السني وأبي نعيم ومثل هذه الكتب محشوة بالأحاديث الكاذبة التي قد اتفق العلماء على أن لا نثق بها.

ولقد روى الحاكم في المستدرک أنه لما زلّ آدم فقال: اللهم إني أعوذ بك بمحمد صلّى الله عليه وسلّم فقال له الرب: كيف وجدت محمدًا فقال له آدم: لما رفعت رأسي وجدت "لا إله إلا الله محمد رسول الله" مكتوبًا تحت قدمي العرش فظننت أن من ألحقت اسمه إلى جلالته ليكون أحبّ عبد لديك فقال له الرب: صدقت يا آدم فإن لم يكن محمد لما

¹ المصدر نفسه، 35/1 (على هامش المقدمة)

مجلة الهند

خلقتك" فقال الحاكم بعدما روى هذا الحديث: هذا حديث صحيح، فيقول العلامة ابن تيمية: قد أنكر المحدثون قول الحاكم بأن مثل هذه الأحاديث صحيحة وقالوا إن الحاكم يعدّ الكثير من الأحاديث الكاذبة والموضوعة صحيحة وكذا جاء في مستدرک الحاكم أحاديث عدّها صحيحة بينما عدّها العلماء كاذبة".

ويقول العلامة ابن تيمية في موضع آخر وهو يذكر كتاب أبي الشيخ الإصفهاني: وفيه أحاديث قوية وصحيحة وحسنة كما فيه أحاديث ضعيفة وموضوعة ومهملة وكذا فيه أحاديث ينقلها خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة وأحاديث ذكرها أبو نعيم الإصفهاني في فضائل الخلفاء في كتاب "حلية الأولياء" وأحاديث يرويها المحدثون أمثال أبي بكر الخطيب وأبي الفضل وأبي موسى المديني وابن عساكر والحافظ عبد الغني".

فيلفت العلامة شبلي أنظار الناس إلى أن أبا نعيم وخطيب البغدادي وابن عساكر والحافظ عبد الغني كانوا أئمة الحديث والرواية ولكنهم مع ذلك كانوا يروون الأحاديث الضعيفة في فضائل الخلفاء والصحابة وسبب ذلك ليس إلا أنه عمّ الناس أن لا حاجة إلى الحذر إلا في أحاديث الحرام والحلال وأما الشئون الأخرى فيكفيها ذكر أسناد الرواية. وقد جاء في موضوعات الملا علي القاري أن واعظاً روى في بغداد أن الله سيجلس محمداً معه على العرش يوم القيامة فلما بلغه الإمام ابن جرير الطبري فار غضبه وكتب على بابه: لا جليس لله" فسخط منه أهالي بغداد وأمطروا الأحجار على بابه حتى انقضت جدرانه.

ولنلاحظ هنا أنه لم يولد أحد أفضل من البخاري ومسلم في الحديث والرواية كما كانا أفضل المحدثين لأجل محبة النبي صلى الله عليه وسلم التي كانا يطويانها بين جنبيهما ولكنهما لم ينقلا في كتبهما ما روي في البيهقي وأبي نعيم والبزاز الطبراني حتى أنهما لم يذكرنا من أحاديث هذا النوع ما جاء ذكره في النسائي وابن ماجه والترمذي فيبدو من هذا أن الأحاديث الضعيفة تقل قدرما تزداد درجة الجرح والتعديل فمثلاً أنما رواه البيهقي وأبا نعيم والخرائطي وابن عساكر وابن جرير من أنه لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم

مجلة الهند

انحطت أربعة عشر إفريزاً لإيوان كسرى وأطفيت نار فارس وجفت البحيرة الطبرية لا يوجد في صحيح البخاري ومسلم حتى لا نجده في الصحاح الستة البتة.

وما أُلّف عن السيرة من الكتب والرسائل معظمها مأخوذة من مؤلفات هذا النوع ولذا فقد تسَلَّل فيها الروايات الكاذبة بكثرة ولقد صرف العلماء النظر عما قرّره المحدثون من الأصول فالأصل الأوّل للمحدثين أن لا تنقطع سلسلة الرواية في أي مكان وتنتهي إلى أصل الواقع فمعظم ما ذكر من الروايات عن مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم منقطعة فليس من بين الصحابة من يكون عمره قابلاً ليروي شيئاً عن مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم فأكبرهم سنّاً هو أبو بكر رضي الله عنه وهو أصغر من النبي صلّى الله عليه وسلّم بسنتين ولذا فما ذكر من مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم ليس معظمها متصلاً وعلى هذا فقد انتشر من الروايات ما لا يعترف به عقول البشر فمثلاً أن أبا نعيم قد روى عن أمّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه لما ولد النبي صلّى الله عليه وسلّم قد حشي البيت بطيور عدة كانت مناقيرها من الزمرد والياقوت ثم جاء سحاب أبيض ورفع النبي صلّى الله عليه وسلّم وتبعه نداء أن يسّروا هذا الطفل المشرقين والمغربين وكافة البحار كي يعرفه كل ما في الكون.

ومعظم المغازي منقولة من الإمام الزهري ولكن أغلب مروياته والتي ذكرت في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد منقطعة. وتحتوي مقدة "سيرة النبي" على فن الرواية والذي لم نتحدث إلا عن قضية واحدة منه أي الفرق بين السيرة والحديث فنصرف النظر عما كتبه العلامة عن مجموعة الأحاديث المكتوبة في عصر النبي صلّى الله عليه وسلّم والمباحث التي تأتي بالنسبة للسيرة والمغازي أو كتبها الأمهات.

وبما أن العلامة يرى فن الرواية أول أصل من أصول فن التاريخ الإسلامي والذي بني عليه فن أسماء الرجال وهو محمّدة مدهشة لا مثيل لها للمسلمين فنجد في كل من "سيرة النبي" و"الفاروق" مباحث قيّمة عن الرواية والدراية مثل "أصول الرواية والدراية

مجلة الهند

في القرآن الكريم" و"بداية الدراية" و"أصول الدراية لدى المحدثين" وأصول الرواية" وأصول التمييز بين الحديث الصحيح والحديث الموضوع" وغيرها.

ومستعرضاً لكتب فن السيرة فقد قام العلامة بكتابة مباحث حافلة بالموضوعية حول القضايا العديدة المتعلقة بالحديث والرواية ومن عناوينها "فرق الدرجات بين كتب الحديث وكتب السيرة" و"تسامح المحدثين في فن السيرة" و"غفلة كتب الحديث عن السيرة" و"تدليس كتّاب السيرة" و"لم تعمل أصول الرواية في كل مكان" و"اختلاف الدرجات في الرواية" و"مبحث كون كافة الصحابة عدوًّا" و"لم تناقش سلسلة العلة والمعلول في الوقائع" و"لم بين مستوى الشهادة نظرًا لنوع الواقعة" و"رواية الرواة غير الناضجين" و"شرط الفقهة للرواة" و"وجود شطر القياس في الرواية" و"تأثير الأسباب الخارجية على فن التاريخ والرواية" و"القياس والدراية" و"جماعتان فيما بين الصحابة" و"المحدثون ودراية الحديث" و"الرواية بالمعنى" و"رواية الأحاد".

لقد لخص السيد سليمان الندوي ما كتبه العلامة من المباحث في 11 بندًا مما يلي:

1. لنبحث عن الواقعة أولاً في القرآن الكريم ثم في الأحاديث الصحيحة ثم عامة الأحاديث وإن لم يوجد شيء فلنرجع إلى روايات السيرة.
2. كتب السيرة تحتاج إلى التنقيح ويجب علينا أن نغربل رواياتها وأسنادها.
3. روايات السيرة أقل من روايات الأحاديث بالنسبة للصحة ولذا فنرجح روايات الأحاديث إذا وقع الاختلاف.
4. وترجح روايات الفقهاء الناضجون على روايات غيرهم إذا وقع الاختلاف.
5. لا بد من البحث عن العلة والمعلول بالنسبة لسلسلة وقائع السيرة.
6. يجب علينا أن نقيم مستوى الشهادة بالنسبة لنوع الواقعة.
7. يجب البحث عن أصل محتوى الواقعة في الرواية وعن قدر رأي وفقه الراوي.
8. يجب البحث عن الأسباب الخارجية.

مجلة الهند

9. لا يحتج بما يخالف وجوه العقل العامة والأصول المعترف بها وقرائن الحال من الروايات.

10. أما بالنسبة للموضوعات المهمة فيجب علينا أن نطمئن بجمع وتطبيق مختلف الروايات عما إذا وهم الراوي في أداء المعنى.

11. لنقبل الأحاد حسب أهمية الموضوع ومطابقة قرائن الحال لها.

حتى الآن حاولنا أن نتحدث عما بيّنه العلامة شبلي من الأصول والمبادئ لصحة وقوة ومستوى الرواية والحديث في ضوء مقدمة "سيرة النبي" والآن سننقل بعض مباحثه من "سيرة النبي" والتي قد تناولها العلامة كمحدث.

نقد الأحاديث: وقبل كل شيء نذكر موقف العلامة من نقد الأحاديث فنري منزلته في هذا ولهذا أخذنا بعض وقائع السيرة:

واقعة بحيرا الراهب: قد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على السفر إلى الشام بالمرافقة لعمّه أبي طالب وكان عمره آنذاك 12 سنة فلما بلغ أبو طالب بصرى نزل بخانقاه راهب نصراني يسمّى "بحيرا" فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال: هذا سيد المرسلين" فسأله الناس كيف علمت بذلك فقال: عندما نزلتم من الجبل سجد له كل شجر وحجر.

ذكرت هذه الرواية من مختلف الطرق والعلامة يتحير من أن النصراني يرغبون في روايتها أكثر من المسلمين ويعتبرون هذه الواقعة فتحاً عظيماً للنصرانية ويدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم حقائق الدين وأسراره على هذا الراهب وبما أنه قد ذكر له النقاط المهمة فقد بنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم دينه "الإسلام" فما يحتويه الإسلام من الأصول الجميلة شرح لتلك النقاط فيقول دربر في كتاب "النزاع بين العلم والدين":

"قد علّم بحيرا الراهب محمّداً العقائد النسطورية في خانقاه بصرى. كان النبي ذا عقل حادّ وذهن أخذ فلم يأخذ من معلّمه الأفكار الدينية فحسب بل أخذ منه الأفكار الفلسفية --- وفيما يعد تشهد معاملته صلى الله عليه وسلم كم سيطرت عليه العقائد النسطورية".

مجلة الهند

ولقد حاول السير وليوم ميور بكل قوة أنما ثار في قلب النبي من التنفر عن الوثنية وما رسمه من خريطة دين جديد يرجع فضلها إلى هذه الرحلة وتجارب ومناظره المختلفة التي مارسها خلالها فيقول العلامة إنه إذا اعتبر الكتاب النصارى هذا الحديث صحيحاً فليعتبروه كما هو فلا يوجد فيه أي ذكر لتعليم بحيرا الراهب للنبي ولا يقاس أن ولدًا لم يبلغ رشده كيف يتمّ تعليم أسرار الدين ورموزه له وإذا كانت هذه خارقة العادة فهل كانت هناك حاجة إلى تأذي بحيرا لها؟

وبعد النظر في هذا الحديث عن طريق الدراية يثبت أنه لا يوثق به رواية وأن كافة طرقه مرسلّة فإن الراوي الأول لم يكن حاضر الواقعة ولا يسمّي الراوي الذي حضر الواقعة. وأوثق طريق لهذه الرواية ما يوجد في جامع الترمذي فقال فيه ما يلي:

1. يقول الإمام الترمذي إن هذا الحديث حسن غريب فلا نعرف به عن غير هذه الطريقة فيقول العلامة إن الحسن أقلّ درجة من الصحيح وإذا كانت فيه الغرابة فهو تنحطّ درجته مزيداً.
2. ولو أن عديد المحدثين اعتبروا عبد الرحمن بن غزوان ثقة إلا أن معظمهم لم يطمئنوا إليه فيقول العلامة الذهبي في ميزان الاعتدال: إنه يروي الأحاديث المنكرة وأنكرها ما جاء فيه قصة بحيرا الراهب.
3. عدّه الحاكم على شرائط البخاري ومسلم ولكن العلامة الذهبي كتب في تلخيص المستدرک: إني اعتبر بعض أجزاء هذه الواقعة موضوعاً وكاذباً.
4. والراوي الأخير لهذا الحديث هو أبو موسى الأشعري الذي لم يكن حاضر الواقعة ولا يذكر من سبقه من الراوي، والسلسلة التي جاء ذكرها في طبقات ابن سعد هي مرسلّة أو معضلة ففي المرسل أن التابعي الذي ليس بشاهد الواقعة لا يسمّي صحابياً وأما المعضل فلا يسمّي الراوي من سبقه من الراويين التابعي والصحابي.
5. يعتبر الحافظ ابن حجر هذا الحديث صحيحاً ولكنه بما أن حضور أبي بكر وبلال خاطئ بداهة فيضطرّ إلى الاعتراف بأن هذا القدر من القصة قد ألحق بالأصل خطأ

مجلة الهند

ولكن دعواه أن رواة هذا الحديث عدول، أيضًا باطلة فقد كتب الحافظ ابن حجر ذاته عن عبد الرحمن بن غزوان في تهذيب التهذيب: إنه يخطئ فيشكّ هل روى الممالك أم لا¹ ورواية الممالك هي التي يعتبرها المحدثون كاذبة وموضوعة¹.

هذا ما قام به العلامة شبلي من تنقيح هذه الرواية وأما تلميذه السيد سليمان الندوي فقد غرّب هذا الحديث في المجلد الثالث لهذا الكتاب بعنوان "درجة رواية عامة الدلائل والمعجرات"².

عبادة الأوثان من قبل النبي وزوجته خديجة: هذا ثابت بالبداية لدى العلامة شبلي أن النبي كان يجتنب الشرك وتقاليده منذ طفولته وفي شبابه ولكن النصارى يقولون أنما حدث من التغير في عقيدته جاء بعد نبوته وإلا فهو كان يعمل من قبل طبق عشيرته وأهل مدينته فقد سمى بكرة أولاده "عبد العزى" والذي يوجد في التاريخ الصغير للبخاري فيقول العلامة إنه لا يستدل بهذه الرواية على ذات النبي إذا كانت هي صحيحة.

فقد كانت خديجة تعبد الأوثان قبل الإسلام فعسى أن سمّت ولده هذا الاسم وأما النبي فلم يعط النبوة حتى الآن فلم يتعرض لهذه التسمية. والواقع أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً فأصحّ طريق لهذه الرواية ما جاء في التاريخ الصغير للبخاري فأول رواته إسماعيل والذي اسمه الكامل إسماعيل بن أبي أويس. ولو أن بعض المحدثين وثّقه إلا أن معظمهم يقولون كما يلي:

هو وأبوه ضعيفان. إنه يكذب وليس له أهمية. إنه لا يوثق به وكذاب وضّاع، ويقول الإمام الدراقطني: إني لا أرى صحيحاً أن أروي حديثاً صحيحاً عنه" ويقول سلمة بن شعيب: إنه بنفسه أقرّ لي بأنني كنت أضع الحديث كلما اختلفت في أمر ما³.

¹ المصدر نفسه، 128-126/1

² المصدر نفسه، 660-658/3 (الطبعة الجديدة)

³ المصدر نفسه، 136-135/1